منهج الفهم (verstehen) بين التفكيكية والتحليل السيميائي نحو تأسيس "علم النص"

ا . مزي عبد القادر / جامعة تلمسان.

- "إن العلامة شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر" بيرس

إن وضعية العلوم بصفة عامة والعلوم الاجتماعية والإنسانية بصفة خاصة في وقتنا الحاضر بات مقلقا إلى حد كبير، وذلك نتيجة تزايد مطامع النزعة "العلموية" بالمعنى الوضعي لكلمة "العلم". فلقد كان إعلان "كوبرنيك" (1543.1474) بأن الأرض ليست مركزا للكون وإنما الشمس بحكم مبدأ الملاحظة هي المركز بمثابة انقلاب منهجي معلنا بصراحة تأسيس منهج جديد للعلم رافضا بذلك سلطة العقل المطلقة في إثبات الحقائق أو إنكارها كما ألف رجال العلم منذ "أرسطو"(384 ق م . 322 ق م).

ثم تعالت بعد ذلك تباعا الصيحات المنادية بطرد الفلاسفة من جمهورية العلم، تماما كما ناد ذات يوم الفلاسفة على لسان أفلاطون حين أعلن طرد الشعراء من الجمهورية، ويظهر ذلك بوضوح من خلال أعمال الفيزيائيين والفلكيين الكبار تباعا؛ "غاليلي" (1642.1564) و "جوهانس كبلر" (1630.1571) ثم "إسحاق نيوتن" (1727.1642).

إن حضور الفلسفة ومزاحمتها للعلم(بالمعنى الجديد) أضحى أمرا مزعجا لذوي النزعة العلمية المتطرفة، بل لقد ناد البعض بضرورة تخلص العلوم الاجتماعية من سيطرت الفلسفة إن هي أرادت أن تلحق بركب علوم الطبيعة التي باتت تتميز بالدقة والموضوعية والنمذجة.

غير أن المدافعين عن الدور الأساسي الذي يمكن /أو يجب أن تلعبه الفلسفة في توجيه المعرفة بوجه عام، راحوا في مقابل ذلك يعلنون ويحذرون من حجم الخطورة التي يمكن أن يؤول إليها وضع المعرفة إن هي أدارت ظهرها للفلسفة كلية. ذلك كان موقف "فلهلم دلتاي" (1911.1833) وهو بصدد الدفاع عن مكانة ما سماه بـ(Geistes Wissenschaften)
أي "علوم الفكر"، في مقابل "علوم الطبيعة".

ونفس الانشغال عبر عنه "إدموند هوسرل"(1859.1938) حين كتب مؤلفه الشهير: "أزمة العلوم الأوروبية والظواهرية المتعالية" (La Crise des sciences européenne et La Phénoménologie transcendantale) ، و قبله عام 1931 ألف كتابه "تأملات ديكارتية" (Les Méditation cartésiennes). فالإنسان حسب "هوسرل" يبدو الآن وكأنه نسي أصله الوجودي؛ وذلك حين أصبحت المعرفة المتجلية في النموذج العلمي المادي تنظر إلى الوجود بما فيه الإنسان كأنه مجرد حوادث أو وقائع.

ولأن النزعة العلمية ظلت بعد ذلك هي مقياس الإدراك الصحيح للعالم، فقد غدا العالم أشياء، أو بصفة أدق لم يعد هناك من وجود حقيقي إلا وجود الأشياء، فمقياس وجودها هو قابليتها للإدراك وفق المنهج العلمي الوضعي القائم أساسا على التجربة الحسية التي هي بداية ونهاية كل عملية علمية بالمعنى الصحيح للعلم الحديث.

سعيا لتحقيق مطلب العلمية سارع بعض منظري العلوم الاجتماعية إلى الإقتداء بالعلوم المادية، وقد تجلى ذلك على الخصوص من خلال تنامي ظاهرة استقلالية هذه العلوم(الاجتماعية) عن كل قيادة فلسفية خاصة بعد أن أطلع رواد هذا المجال عن مصنف "أوغست كونت"(1798.1857) الموسوم بـ"دروس في الفلسفة الوضعية"، و هؤلاء كـ"إميل دوركايم"(1858.1917) في "قواعد المنهج في علم الاجتماع" و بعده "كلود ليفي ستروس"(1908.؟) في "الأنتروبولوجيا البنيوية" واللغوي السويسري الشهير "فردينان دي سوسير"(1857.1913) في "دروس في الألسنية العامة".

أما علم النفس ونظرا لتداخل موضوعاته بمشكلات المعرفة والمنطق، فقد شهد النقاش حول البعد الفيزيولوجي للظواهر النفسية مبكرا، وذلك منذ أن أشار "توماس هوبز"(1588.1679) و بعده "جون لوك" (1632.1704) إلى طبيعة البعد الحسي للإدراك و الفهم البشري، ثم بعد ذلك كانت مساهمات السويسري "جان بياجيه"(1896.1980) مؤسس "علم النفس التكويني".

إن هذا التجزؤ الذي أصاب المعرفة كان بدون شك يهدف إلى تطوير المعرفة العلمية وفق المنهج الجديد الذي أثبت نجاحه في علوم الطبيعة، حيث مكن الإنسان من فهم أحسن للعالم الذي يحيط به بل و ضبط قوانينه في شكل معادلات كمية رياضية (قوانين علمية).

لكن إذا كان العلم الطبيعي اليوم هو في حد ذاته بحاجة ماسة إلى عمل نقدي يرسم له حدوده وينقده من دوغمائيته التي أنتجت عوائق بالمفهوم الإبستمولوجي الباشلاري (نسبة إلى "باشلار"(1962.1884))، فإن الوظيفة النقدية التي يمكن للفلسفة أن تقوم بها بدون منازع هي حاجة العلوم الاجتماعية كذلك بحكم قرابتها ومواءمتها.

و باعتبار اللسانيات قادرة أكثر من غيرها على تحديد غرضها وموضوعها، فقد أضحت هي النموذج الأمثل للعلوم الإنسانية في تبنيها للمنهج الوصفي العلمي، وذلك منذ أن اعتبر"دي سوسير" اللغة عبارة عن نظام من العلامات الصوتية تمثل الوجه المادي لوجه آخر هو نفسي أو فكري (المدلول) وهما على حد تعبيره وجهين لعملة واحدة.

غير أن الدراسات اللسانية كما هو معروف لدى جميع اللسانيين، وإن كانت قادرة على نمذجة وحدات اللسان فهي غير قادرة على نمذجة الخطاب الذي تكون ذخيرته اللسان الاجتماعي طبعا؛ حيث أن الجملة هي آخر التمفصلات اللغوية القابلة للوصف العلمي.

و بما أنه من الصعب تجنيس الخطاب في أغلب الأحايين، لتقاطع مقولاته وملفوظاته وتناصها مع المقولات التي تشتهر بها خطابات متباينة الموضوع (خطاب العلم/ خطاب الفلسفة/ خطاب الدين/..)، فقد بات من الضروري التأسيس لعلم قادر على دراسة وتحليل الخطابات البشرية التي قد تتقاطع دلالاتها علميا وفلسفيا وجماليا ودينيا وأسطوريا لكنها لا تأخذ حيزا وجوديا إلا من خلال اللغة، و لكي ندقق أكثر نقول اللغة المكتوبة لا المنطوقة أي اللغة التي تستخدم التي لها حيز مكاني لا تلك اللغة (لغة الأصوات) التي تدفعها ذرات الزمن إلى أغوار الماضي الغائب الذي يشبه إلى حد ما الميتافيزيقي في غيابه.

إن هذا العلم يجعله البعض نمطا من تحليل الخطاب ويسميه البعض الآخر علم النص، لكنه قبل ذلك كله هو علم يحيلنا أحيانا إلى جهود الفيلولوجي "نتشه"(1900.1844) صاحب الشذرات

والذي كثيرا ما حذرنا من خطأ الاعتقاد في اللغة، و أحيانا أخرى إلى "ميشال فوكو"(1926.1984) صاحب "الكلمات والأشياء" و "أركيولوجيا المعرفة".

أن تصبح المعرفة البشرية متضمنة داخل الخطابات هذا أمر قد يكون من السهولة التسليم به، لكن أن تصبح تلك الخطابات المتناقضة المقولات أحيانا موضوع علم يَدعِي القدرة على تشفير رموزها فذلك تحدٍ أكبر ربما من قدرة مفكر واحد. إن الأمر يحتاج هنا إلى جملة من المراجع و التخصصات العلمية منها وغير العلمية أو ربما إلى فرق عمل متنوعة لإحداث مقاربة مفهوم واحد من مفاهيم نص متناص.

لقد حاولت "جوليا كرستيفا"(1941. ؟) ولوج هذا العلم . علم النص . رغم وعيها وإدراكها لمدى الصعوبات والعوائق التي ستعترض سبيلها، وذلك لأن هذا العلم في رأيها أصبح اليوم يمثل أكثر من ضرورة لما يقدمه من مقاربات متنوعة تساعدنا على فهم وتحليل خطابات المعرفة البشرية وتمظهراتها . تنوع أشكال التعبير الثقافي بين دلالات الصوت والصورة والحركة والكتابة .. . الثقافية التي يجب أن تمر أولا وأخيرا عبر الدليل اللغوي الذي تمثل اللسانيات نموذجه السيميائي.

كذلك كان شأن آخر الفلاسفة الفرنسيين "جاك دريدا" (1930. توفي منذ ما يزيد عن السنة)، الذي حاول تفجير سلطة التماسك والنظام الذي فرضته اللسانيات البنيوية حين قالت بتحكمية (تواضعية) اللغة التي تفضي حسب رأيه إلى التحكم في الدلالة و المعنى (المعنى الوحيد الذي يتبلور من خلال الإكراه الاجتماعي).

إن هذه المحاولات التي تصب في إطار اللغة هي محاولات فلسفية، هي فلسفة لغوية اعتبرت اللغة كوناً يجب فك وتفكيك رموزه، أو إن شئنا تعبيرا أفضل "إن فهم لغة الكون وفهم كينونتنا يتم فقط من خلال اللغة"، فاللغة مكمن الكينونة كما عبر عن ذلك غير ما مرة الفيلسوف "مارتن هايدغر".

- إلى أي مدى يمكن للمجال السيميائي أن يغير من التمييز الحاصل بين الفلسفة والعلم؟

حسب "كريستيفا" إن مجال التحليل السيميائي(sémanalyse) و « انطلاقا منه، لا تستطيع الفلسفة تجاهل الخطابات(أي الأنساق الدالة للعلوم) ولا تستطيع العلوم نسيان كونها خطابات(أنساقا دالة). إن التحليل الدلائلي باعتباره مجالا لتداخل العلم والفلسفة ومجالا للتحليل النقدي للخطوة العلمية، يرتسم كتمفصل يمكن من التشكل المهشم والمتراتب والتمايزي لمعرفة مادية،

أي لنظرية علمية للأنساق الدالة في التاريخ وللتاريخ كنسق دال. لهذا نقول بأن التحليل الدلائلي ينتزع مجموع الأنساق الدالة للعلوم من أحاديتها اللانقدية وينظم الأنساق الدالة بطريقة نقدية مساهما بذلك لا في تأسيس نسق محكم للمعرفة، وإنما في تأسيس سلسلة خفية من الاقتراحات المتعلقة بالممارسة الدالة.» (**1**)

إن التحليل السيميائي الذي تصبو إليه الباحثة "كرستيفا" ينطلق من بديهة أن مجموع العلامات اللغوية للنص . بغض النظر عن هويته ومجاله المعرفي . هي علامات لها دلالات، وما يجعل العلامة ذات دلالة هو شروط إنتاجها الاجتماعية والتاريخية؛ تلك الشروط التي تجعل العلامة ملأى بالتدليل.

التركيز على معالجة النصوص يعني أن كل الإشارة السيميائية (حركة، صوتا، صورة، ..الخ) لا يمكن إدراكها وتحليل مدلولاتها إلا من خلال اللغة.(**2**)

كون النماذج التي تعدها السيميائية مقتبسة من العلوم الشكلية (المنطق والرياضيات) فهذا يعني أنها كنماذج العلوم الدقيقة(**3**).

بما أن التحليل السيميائي يقوم على عملية نقدية متواصلة للعلوم فهذا لا يجعلها في منأى من هذا النقد، ومن ثم فهي« طريق بحثي مفتوح، ونقد دائم يحيل إلى ذاته أي أنها تقوم بنقد ذاتي. كونها نظرية ذاتها، فإنها النمط الفكري القادر على التكيف مع نفسه (التأمل في ذاته) دون أن تتحول إلى مذهب» (**4**).

إنها قادرة على أن تبدد صحة وصفاء العلوم المسماة إنسانية حينما تقوض المقدمات التي ينطلق منها المنهج العلمي، فبواسطتها نستطيع الكشف عن الاختلاف الحادث بين الألفاظ والمفاهيم من حقل مفهومي لآخر(**5**). فالألفاظ تتخذ معنى مغايرا عندما تطبق على موضوع إيديولوجي جديد.

لقد بدا التحليل السيميائي شبيها بالعلم الإديولوجي الجديد، لأنه يساعدنا على الكشف عن المناهج والظروف التي كانت وراء إنتاج النصوص؛ ففهم تمظهرات اللغة يحيلنا بالتالي إلى مجموعة علوم متاخمة من قبيل: التحليل النفسي، علم النفس اللغوي، علم الاجتماع اللغوي، التاريخ والأنتروبولوجيا، مما يعني أن خلخلة الدوال اللغوية إلى تأويلات لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة أدق بالحقل الذي أنتجت فيه بكل تناقضاته الاجتماعية والنفسية الشعورية واللاشعورية**(6)**.

إن هذه الخصوصية تجعل السيميائيات في موقع تقاطع عدة علوم، فهي نتاج تداخل العلوم فيما بينها، بحيث يتم بواسطتها اكتشاف الخطابات في تبادلها التطبيقي بين مختلف العلوم.

علم النص كتحليل دلائلي هو أكبر من أن يكون سيميولوجيا أو سيميائيات، لأن النص شبكة من الاختلافات التي تصب في تحولات الكتل التاريخية فهو إذن خاضع لتوجه مزدوج؛ نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه(لسان ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب.

يقوم هذا العمل بالتشكيك في قوانين الخطابات القائمة، حيث يمس بمقدسات اللسان عبر إعادة توزيع مقولاته النحوية وتغيير قوانينه الدلالية والبحث في العلل الأولى التي أسهمت في بناء النص/ البحث في ما هو خارج النص(تقاطع مع "ميخائيل باختين" ونقطة اختلاف مع "دريدا").

مثل هذا العمل الذي دأبت "كرستيفا" نفسها عليه لا يختلف كثيرا عن مشروع " فلسفة التفكيك" عند "جاك دريدا" الذي يرتكز على نقد التمركز حول العقل . logocentrisme / هدم اليقينية المطلقة في الفكر والثورة على سكونيته . التي أرسى دعائمها "أفلاطون" منذ أصبح للعقل سلطة أولى في تحديد المعاني. تلك الفلسفة التي تنامت في ظل النزعة العقلية عندما أصبح القياس المنطقي نموذجا تقاس عليه كل النماذج الفكرية.

بغياب المركز أوعند تقويضه يتحول كل شيء إلى خطاب وتتحقق قوة الحضور بفعل نظام الاختلاف، ومن ثم تعد الميتافيزيقا الغربية هي التي منحت امتيازا خاصا للكلمة المنطوقة على حساب الكتابة بسبب حضور المتكلم والمستمع حين حدوث القول؛ إذ ليس ثمة فاصل زماني أو مكاني بينهما، إن صورة الذاتي المباشر تشكل الفكرة الأساسية للثقافة الأوروبية. ولقد امتد هذا النقد . من طرف دريدا . إلى منظومة حقول متداخلة.

في مواجهة ما يصطلح عليه "دريدا" بـ"ميتافيزيقا الحضور" التي هيمنت على أنظمة الفلسفة الغربية والتي تكونت بفعل "التمركز حول العقل" المستند في حقيقته إلى "التمركز حول الصوت" يقترح "الغراماتولوجيا"(**7**)، ويقصد بها علم الكتابة التي ليست مجرد مشتق طفيلي من التعبير المنطوق كما ظل الناس يعتقدون، بل «هي التجلي الكامل للخطاب.»(**8**)

إن الكتابة تقدم اللغة بوصفها سلسلة من العلامات المرئية التي تعمل في غياب المتكلم، فهي على نقيض الكلام تتجسد عبر نظام مادي من العلامات المرئية بينما يقتصر الكلام على الصوت الذي لا يمتلك خاصية البقاء وإنما يختفي باختفاء الحديث، فالكتابة هنا تقف ضد النطق وتمثل عدمية الصوت، وليس للكينونة عندئذ إلا أن تتولد من الكتابة، عندئذ فقط نلج عالم الاختلاف حيث نحيد بالنص عن أصله وعن النوايا المعلنة للمؤلف.

كون النص "متناص"، فهو عبارة عن نسيج معقد وغامض غير ملتزم بجنس بعينه، لذا على القارئ أن يأتي على كثير من التاريخ و الفلسفة ليتمكن من حل عقده؛ فهو شبيه بـ« آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية. فهذا النص، باعتبار ماهيته المتعالية، يشكو أو ينتشي من غياب ذات الكتابة ومن غياب الشيء المحال إليه أو المرجع.»(**9**)

إن ما يدافع عنه هو «السلطة التي تمتلكها اللغة المتجلية في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة.»(**10**) بل بإمكان العلامة أن تحدث القطيعة مع أي سياق كيف ما كان نوعه للإعلان عن ميلاد سلسلة لامتناهية من السياقات الجديدة(**11**)، وهو ما يضع القارئ في متاهة التأويل، حيث«يتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركية التأويل برمته. إذ تبدأ التأويلية حيث سينتهي الحوار.»(**12**)

إن التفكيكية والتحليل السيميائي تتطلبان منا التعامل بحذر ومهارة فائقين مع تحولات الدليل؛ وهو ما يحيلنا إلى الفلسفة الذاتية ("هوسرل" و"هيدغر"..) وشيء من التحليل النفسي("فرويد" و"لاكان"..) من جهة، وكذا صرامة المنهج البنيوي(سيميائية "بيرس" ولسانيات "دي سوسير"..) وتداعيات منهج الواقعية التاريخية ذات التوجه الماركسي من جهة ثانية.

غير أن توظيف هذه المناهج المتمايزة والمتعارضة أحيانا يطرح صعوبات تحكمية جمة تعبر في حقيقتها عن أزمة المنهج في العلوم المسماة اجتماعية وإنسانية.

المراجع:

(**1**) **Kristeva (julia), le texte et sa science, Edition du seuil, 1969, P.P :23_24.**

(**2**) **أنظر: كرستيفا (جوليا)،(السيميائية علم نقدي و/أو نقد العلم)، مجلة العرب والفكر العالمي، تر:جورج أبي صالح، العدد:02، ربيع 1998، ص:26.**

(3) المرجع والمكان نفسه.

(4) المرجع نفسه، ص:27.

(5) v: Alain Rey, Théories Du Signe et Du Sens, Lettre II, Ed: Klincksieck _ Paris, 1976, P. P : 348_349.

(6) v: Kristeva (julia), La révolution du langage poétique, Paris, éd : Du seuil, 1974, P: 41.

(7) بول ريكور، نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، تر: سعيد الغانمي، ط:2003،01، المركز الثقافي العربي. المغرب، ص: 56. h

(8) v: J. Derrida, de la grammatologie, Ed. De Minuit, 1967. P: 21, 27, 31,35.

(9) أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر:سعيد بن كراد، ط: 01، 2000، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص: 124.

(10) المرجع والمكان نفسه.

(11) نفسه، ص:129.

(12) بول ريكور، نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ص: 64.